



كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة
المجلـة العلميـة
------ــــــــ

القيم الروحية في السنة النبوية ودورها في قيام وسقوط الحضارات

إعداد

أ.د/ إمام الشافعي محمد حمودي
عميد كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة

د/ وليد صالح محمد عباس
قسم التاريخ - كلية الآداب – جامعة درنة- ليبيا



(**العدد السادس**)

١٤٤٧هـ /٢٠٢٥م

القيم الروحية في السنة النبوية ودورها في قيام وسقوط الحضارات

اسم الباحث : إمام الشافعي محمد حمودي
أستاذ التاريخ والحضارة في كلية اللغة العربية بأسيوط ، جامعة الأزهر ، وعميد كلية البنات الأزهرية بالمنيا الجديدة .
الدولة : جمهورية مصر العربية
البريد الإلكتروني : Alyaatv@yahoo.com
و د/ وليد صالح محمد عباس
قسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة درنة- ليبيا

الملخص :
فإن الإسلام دين واقعي وقابل للتطبيق في كل زمان ومكان ، فلم يترك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة شيئا من العلوم أو غير العلوم إلاَّ وتم تناولها بطريقة أو بأخرى ، وقد فهم ذلك الأمر من توقف أمام النص القرآني أو النبوي وتدبره ، وجهله من لم يقرأه ، أو قرأه ولم يتمعنه .
ومن هذه النصوص الكثيرة الواردة في السنة النبوية ــ فضلاً عن القرآن الكريم ــ القيم الروحية ودورها في قيام وسقوط الحضارات . فهناك العديد من الأحاديث النبوية التي تكلم فيها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن هذه القيم الروحية ودورها في قيام وسقوط الحضارات .
وتأتي في مقدمة هذه القيم ، العناية الإلهية المتحكمة في سير الأحداث التاريخية وهي تتمثل في إرادة الخير من الله تعالى للناس ، على أساس أنهم خلفاء الله في الأرض ، فلا بد لهم من أن يقيموا حضاراتهم المختلفة بعناية من الله تعالى ، لإعمار الأرض والعمل بهذه الخلافة . ثم تنتقل السنة النبوية بعد ذلك إلي بيان مسئولية الفرد في بناء أو سقوط الحضارة ، على أساس أن الإنسان هو الكائن الوحيد القابل للتطور والتمدن في الكون ، فهو عنصر أساسي في بناء أو سقوط الحضارات ، فبينت السنة النبوية مسئوليته في البناء أو الهدم .
ثم ينتقل البحث إلي الحديث عن عوامل بناء وسقوط الحضارات في السنة النبوية مع التأكيد على ما جاء في الأحاديث النبوية ، بما ورد في مقدمة ابن خلدون ، على أساس أنه أعظم عمل فكري يبحث في عالم الإنسان وحضارته .
وأخيرا فهذا البحث هو جهد مقل ، لكن على أمل أن يتبنى فكرتها بالبحث الواسع والأعمق من يقيضه الله لذلك ، وأرجو من الله تعالى أن يستفيد منه من يقرأها .

الكلمات المفتاحية :
السُّنة النبوية – قيام – وسقوط – الحضارات – الخلافة – إمام – الشافعي .

Summary

Islam is a practical and applicable religion for all times and places. The Holy Quran and the purified Sunnah of the Prophet (peace and blessings be upon him) have addressed every aspect of knowledge and life in one way or another. This is understood by those who reflect upon and contemplate the Quranic and Prophetic texts, and by those who do not read them, or who read them without understanding them.

Among the many texts in the Prophetic Sunnah—in addition to the Holy Quran—are spiritual values and their role in the rise and fall of civilizations. There are numerous Prophetic traditions in which the Prophet (peace and blessings be upon him) spoke about these spiritual values and their role in the rise and fall of civilizations.

Foremost among these values is divine providence, which governs the course of historical events. This is manifested in God's will for the good of humankind, based on the understanding that they are God's vicegerents on Earth. Therefore, they must establish their various civilizations under God's guidance, in order to cultivate the Earth and fulfill this vicegerency. The Prophetic tradition then moves on to explain the individual's responsibility in the rise and fall of civilizations, based on the premise that humankind is the only being in the universe capable of development and civilization. Humans are a fundamental element in the rise and fall of civilizations, and the Prophetic tradition clarifies their responsibility in this process.

he research then proceeds to discuss the factors

contributing to the rise and fall of civilizations according to the Prophetic tradition, emphasizing what is found in the Prophetic hadiths, as well as what is presented in Ibn Khaldun's Muqaddimah, considered the greatest intellectual work exploring the world of humankind and its civilizations. Finally, this research is a modest effort, but it is hoped that its ideas will be adopted by those whom God enables to undertake a broader and deeper study. I pray to God Almighty that those who read it will benefit from it.

Keywords: Prophetic Sunnah – Rise and Fall of Civilizations – Caliphate – Imam – Al-Shafi'i

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق وخاتم المرسلين محمد بن عبد الله وعلى وآله وصحبه وسلم . وبعد

فإن الإسلام دين واقعي وقابل للتطبيق في كل زمان ومكان ، فلم يترك القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة شيئا من العلوم أو غير العلوم إلاّ وتم تناولها بطريقة أو بأخرى ، وقد فهم ذلك الأمر من توقف أمام النص القرآني أو النبوي وتدبره ، وجهله من لم يقرأه ، أو قرأه ولم يتمعنه .

ومن هذه النصوص الكثيرة الواردة في السنة النبوية ـ فضلاً عن القرآن الكريم ـ القيم الروحية ودورها في قيام وسقوط الحضارات . فهناك العديد من الأحاديث النبوية التي تكلم فيها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن هذه القيم الروحية ودورها في قيام وسقوط الحضارات .

وتأتي في مقدمة هذه القيم ، العناية الإلهية المتحكمة في سير الأحداث التاريخية ، وهي تتمثل في إرادة الخير من الله تعالى للناس ، على أساس أنهم خلفاء الله في الأرض ، فلا بد لهم من أن يقيموا حضاراتهم المختلفة بعناية من الله تعالى ، لإعمار الأرض والعمل بهذه الخلافة . ثم تنتقل السنة النبوية بعد ذلك إلي بيان مسئولية الفرد في بناء أو سقوط الحضارة ، على أساس أن الإنسان هو الكائن الوحيد القابل للتطور والتمدن في الكون ، فهو عنصر أساسي في بناء أو سقوط الحضارات ، فبينت السنة النبوية مسئوليته في البناء أو الهدم .

ثم ينتقل البحث إلي الحديث عن عوامل بناء وسقوط الحضارات في السنة النبوية ، مع التأكيد على ما جاء في الأحاديث النبوية ، بما ورد في مقدمة ابن خلدون ، على أساس أنه أعظم عمل فكري يبحث في عالم الإنسان وحضارته .

وأخيرا فهذا البحث هو جهد مقل ، لكن على أمل أن يتبنى فكرتها بالبحث الواسع والأعمق من يقيضه الله لذلك ، وأرجو من الله تعالى أن يستفيد منه من يقرأها .

السنة النبوية والدراسات التاريخية والحضارية

لقد حرص بعض الذين كتبوا ويكتبون عن تاريخ الأنبياء والرسل وتاريخ الأمم ـ والحضارات ـ منذ أقدم الدهور على استبعاد القرآن الكريم وسنة النبي محمد ﷺ من بين المصادر التي يعتمد عليها، كما يحرص البعض الآخر على التشكيك في أية رواية تاريخية تعتمد على القرآن أو سنة النبي ﷺ ، يحدث ذلك كله في الوقت الذي يعتمد فيه هؤلاء الكتاب على التوراة والتلمود والتفاسير والشروح العبرانية ويجعلونها من مصادرهم المعتمدة [١] .

يجب على المسلم أن يرتب المصادر التي يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع الصحيح للمحفوظ من قول النبي عليه الصلاة والسلام وفعله إلى جانب السجل الثابت للوحي الإلهي الذي خصت به الرسالة الخاتمة ، فالقرآن هو قانون الإسلام ، والسنة هي تطبيقه ، والمسلم مكلّف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه [٢] .

تأتي السنة النبوية المطهرة في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ، وهي زاخرة بالنصوص التاريخية الكثيرة التي تمتلئ بها كتب الأحاديث ، ولم يكثر النبي ﷺ من الأحاديث التي تناولت أخبار الماضي فقط ، بل أكثر من ذكر الأحاديث التي تتناول الأخبار التاريخية المستقبلية أو ما يعرف بالغيبيات .

فعندما نمعن النظر في السنة النبوية فسيوف نعثر على منهج متكامل لتفسير التاريخ ومسيرة الإنسان الحضارية ، وهو يقوم على أساس من الحقائق اليقينية التي جاء بها الوحي الصادق ، ذلك أن السنة من الوحي ، فنحن هنا لسنا أمام فروض وظنون وأوهام تستخدم بعض المعلومات الإنسانية المبتورة عن الظواهر المادية والحية لتقيم على رمال الأوهام المتحركة صرحًا شامخًا لتفسير التاريخ والظواهر الحضارية فيه [٣] .

---

(١) جمال عبد الهادي : الإسلام دين الله في الأرض والسماء ـ دار الوفاء ـ المنصورة ـ الطبعة الثانية ١٩٨٨م . ص٦٣ ـ ٦٤ .

(٢) محمد الغزالي : فقه السيرة . دار الكتب الإسلامية ـ القاهرة ـ الطبعة الثامنة ١٩٨٢م . ص٣٧ .

(٣) محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ـ دار المنار ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع . ص٨٦ .

فقد ورد في السنة النبوية المطهرة الكثير من الأحاديث التي فسر بها النبي ﷺ الكثير من أحداث التاريخ في الماضي ، وبين المحركات الأساسية له ، وبين في العديد منها أيضًا العوامل العديدة التي تساعد على قيام الحضارات ، كما أن هناك العديد من الأحاديث النبوية التي تبين عوامل سقوط الحضارات أيضًا. وإن كان الهدي النبوي في هذه الأحاديث يعبر عن لفظ الحضارة قيامًا وسقوطًا بلفظ "الأمم" . وهو ما سوف نتعرف عليه في الأوراق الآتية ، مع محاولة التأكيد على ذلك ، من خلال ما ورد في مقدمة العلامة ابن خلدون من عوامل بناء وسقوط الحضارات .

العناية الإلهية والتاريخ

يستمد التفسير الإسلامي للتاريخ في الإسلام من المقررات الإسلامية عن الوجود كله ، سواء الوجود الإلهي ، أو الوجود الإنساني ، أو الوجود المادي ، وعلاقة الخالق بمخلوقاته ، وعلاقة الخلق بخالقهم، والسنن التي يجري بها الله أمر البشر وأمر الكون ، وهذه المقررات ربانية من جهة أن مصدرها هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ... فالمتدبر لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ يجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن وتوجيه النظر إليها ، واستخراج العبرة منها ، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله ... وهي سنن كثيرة متعددة ، تشمل مجالات كثيرة في الحياة البشرية [١] .

تأتي " العناية الإلهية " في مقدمة " السنن " أو الأسس التي يقدمها الإسلام في تفسيره للتاريخ البشري ، بأن هذه " العناية " هي المتحكمة في سير الأحداث وهي " عناية " ليست " جبرية " مفروضة على أفعال البشر بقدر ما هي جبرية في السير العام لأحداث التاريخ ، وذلك لإعلام البشر جميعا ، بأن شيئًا من هذه الأحداث الجارية أو الماضية أو الآتية ، لا يمكن أن تخرج عن إطار العلم الإلهي المسبق لها ، أو عن إطار المشيئة الإلهية . إن علاقة الله جل جلاله بالبشر في القصة النبوية تبدو في جوهرها علاقة تكشف عن ود ورحمة وتشع بالشفقة والعطف من الله تبارك وتعالى للناس من بني آدم ، وهي تتمثل في إرادة الخير للناس من الله وقربه من المؤمنين خاصة ، وغفرانه ورحمته التي تتجاوز إلى المذنبين ... واشتملت السنة النبوية في كثير من نصوصها على أفعال وأقوال صادرة عن الله تبارك وتعالى ، وهي أقوال وأفعال ذات أثر بارز في سياق القصة وتعطينا تصورًا ما عن " الله " وتعرفنا ببعض صفاته ، مما يجعلنا بالتالي أكثر قربًا منه ، وشعورًا بوجوده ، وإحساسًا بهيمنته الشاملة على هذه الحياة في أولاها وآخرها [٢] .

لقد أيد الله رسوله بآيات مادية هي أدلة عقلية ، ومحاولة التشكيك فيها أو السكوت عنها مسايرة للتيار، نقص في الإيمان، فالإسراء والمعراج آية مادية لأن

(١) محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ ــ مؤسسة بدران ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع ص١٠ ، ٨٦ .

(٢) محمد الزير : القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية ــ دار المدني ــ جدة ــ السعودية ــ الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ . ص٢٣٣ ــ ٢٣٩ .

الرسول ﷺ قد أسرى وعرج به على القول الثابت الصحيح روحًا وجسدًا ، والهدف من ذلك بيان أن هذه الأسباب التي ألف الناس جريانها على نحو ثابت يمكن أن تتغير إذا أراد الله ، والمراد هو بيان أن مشيئة الله مطلقة لا يحكمها نظامها وإنما هي التي تحكم النظام ، ففي علم التفسير الإسلامي تأتي المشيئة الإلهية على رأس العوامل المحركة للتاريخ والمعملة للعوامل نفسها في الناس والأشياء والتاريخ . فالله هو الذي خلق الخلق وهو الذي رتب الأسباب ، وهو الذي يدبر الخلق ويجري الأسباب [١] .

إن التفسير الإسلامي للتاريخ يقرر أن التاريخ البشري هو تحقيق المشيئة الربانية من خلال الفاعلية المتاحة للإنسان في الأرض بقدر من الله ، وبحسب سنن معينة يجري الله بها قدره في الحياة الدنيا . والتاريخ من جهة أخرى هو سعي الإنسان لتحقيق ذاته كلها ، لا البحث عن الطعام فحسب ، ولا المتاع والسيطرة والاستحواذ فحسب ، إنما تحقيق كل ما يشتمل عليه الإنسان من طاقات وقدرات ، وتطلعات وأشواق ، إلى جانب الضرورات القاهرة والرغبات القريبة ، وهو تاريخ الفرد والجماعة في ذات الوقت من خلال تشابكهما الذي لا ينتهي ، وتدافعهما الذي لا يقف عند حد [٢] . فمن أهم أصول التعاليم التي جاء بها القرآن أن الأمم تحاسب بمجموعها ، وأن العذاب يعجل لها في الحياة الدنيا بما اكتسبت من سيئات ، ولكي يؤكد القرآن هذا المعنى فإنه دائب الإشارة إلى الأمم الخالية داعيًا إلى الاعتبار بتجارب البشر في ماضيهم وحاضرهم[٣] . وكذا الحال بالنسبة للسنة النبوية .

---

(١) محمد رشاد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ . ص١٠٠ ــ ١٠٣ .
(٢) محمد قطب : حول التفسير الإسلامي للتاريخ . ص١٣ .
(٣) محمود الشرقاوي: التفسير الديني للتاريخ . دار الشعب ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع . ص٧٧.

قيمة المسئولية الفردية ودورها في بناء وسقوط الحضارات

إن الحضارة لا تبنى أو تسقط إلا بأفعال وأعمال الأفراد الذين تشكل منهم الجماعات ، فوجود الإنسان في البناء الحضاري أو هدمه ضروري ، ذلك أن الإنسان أو الفرد هو الكائن الوحيد على الأرض القابل للتطور ، لذا فقد نوهت السنة النبوية على القيمة الروحية لمسئولية الفرد في بناء أو سقوط الحضارات . ويقول ابن خلدون عن ذلك (١) : " إذا فسدت أحوال الأشخاص واحدًا واحدًا اختل نظام المدينة ــ الحضارة ــ وخربت " .

لقد ذكر الإنسان في القرآن بغاية الحمد وغاية الذم في الآيات المتعددة وفي الآية الواحدة فلا يعني ذلك أن يحمد ويذم في آن واحد ، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما ، فهو أهل للخير والشر ، لأنه أهل للتكليف ، والإنسان مسئول عن عمله ــ فردًا وجماعة ــ لا يؤخذ أحد بوزر أحد ، ولا أمة بوزر أمة (٢) .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ الطور / ٢١ ، ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ البقرة / ١٣٤ .

وكانت حياة الرسول ﷺ تصويرًا حيًا لانتقال التاريخ الإنساني من عصور معجزات الأنبياء إلى عصور جديدة يحمل فيها الإنسان مسئولية عمله ويخطط له على هدي وبصيرة ، دون أن ينتظر انفلاق البحر، أو تفجير الماء من الصخر ، أو تحول العصا إلى ثعبان (٣) .

جاءت نبوءة الإسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة في الدعوات الدينية ، بل لا حاجة بعده إلى جديد ولا استطاعة للتجديد ، لأنه يخاطب في الإنسان صفته الباقية وخاصته الملازمة ، وهي خاصة النفس الناطقة بين الأحياء ، أو خاصة

---

(١) ابن خلدون : المقدمة . تحقيق / علي عبد الواحد وافي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م . جـ٢ ص٨١٩ .

(٢) عباس العقاد : الإنسان في القرآن الكريم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م . ص١٢ .

(٣) عبد العزيز كامل: القرآن والتاريخ . دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤م ص١١٧.

الضمير المسئول الذي يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة من سواه (1) .

فقد أكد النبي ﷺ في أحاديثه المتعددة على المسئولية الفردية في التاريخ ، باعتبار أن الفرد جزء من الجماعة ، والجماعة هي التي تصنع التاريخ بل إن الفرد ذاته يمكن أن يغير وجه التاريخ بأوامره وأفكاره اللتان تسيطران أحيانًا على فكر وإرادة الجماعة ، ولهذا أكد النبي ﷺ ـ كما أكد القرآن كذلك ـ على مسئولية الفرد ، وأنه محاسب لا محالة على كل ما تقترفه يداه فيجب أن يسلك مسلكًا حسنًا في التاريخ ، فمن ذلك ، عن أبى برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما فعل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه " (2).

وعلى الرغم من هذه المحاسبة للإنسان على أفعاله في التاريخ ، إلا أن النبي ﷺ أكد في الوقت ذاته ، على أن هناك أصنافًا من البشر معافون من هذه المحاسبة ، وفي ذلك تأكيد على أن الله لا يظلم أحدًا، قال رسول الله ﷺ : رفع القلم عن ثلاثة ، عن النائم حتى يستيقظ ، وعن الصبي حتى يشب ، وعن المعتوه حتى يعقل " (3) .

ومن التوجيهات النبوية في تقييم المسئولية الفردية في التاريخ ، نهى النبي ﷺ عن " الإمعية " وهي مجارات الفرد لجموع الناس في الشر أو الخير ، بل يجب على الإنسان أن يوطِّن نفسه على الخير دائمًا وأبدا ، قال رسول الله ﷺ : لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا ، وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم ، إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا فلا تظلموا (4) .

ومن التوجيهات النبوية أيضًا في تقييم المسئولية الفردية في التاريخ ، أنه ﷺ وضح بأن الذنوب الفردية نتاجها النقمة من الله تعالى على الفرد في الدنيا وليس في الآخرة فقط ، وأن ذلك يعود على الإنسان بالبوار ثم على العام أجمع ، فالشقاء كل الشقاء في معصية الله تعالى . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله

---

(1) العقاد : الإنسان في القرآن الكريم . ص٢٣ .

(2) الدارمي : سنن الدارمي . دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع . جــ١ ص١٣٥ .

(3) الترمذي : الجامع الصحيح أو سنن الترمذي . تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف . دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م . جــ٢ ص٤٣٨ .

(4) المصدر السابق : جــ٣ ص٢٤٦ .

ﷺ : لا يدخل النار ، إلا شقي " قيل : يا رسول الله ، ومن الشقي ؟ قال : من لم يعمل لله الطاعة ، ولم يترك له معصية "[1] فهذا هو عقاب الآخرة أما في الدنيا فيقول رسول الله ﷺ : من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة بأن يدع طعامه وشرابه "[2] وليس حرمان الرزق في الدنيا قاصرًا على قول الزور فقط ــ وما يمثله من خطورة في ضياع الحقوق ــ ولكن المسألة متعلقة بالذنوب جميعها فعن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : لا يزيد في العمل إلا البر ، ولا يرد القدر إلا الدعاء . وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه " [3] .

وإذا كانت الذنوب تعود على الإنسان في الدنيا بالبوار ، فإن في هذه الفردية المتعددة والمذنبة ، هلاك ودمار للعالم أيضًا ، قال رسول الله ﷺ : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن ، فسودته خطايا بني آدم "(٤) فإذا كان الحجر الأسود ــ وما له من قدسية عند الله والناس ــ كان أشد بياضًا من اللبن ثم سودته خطايا بني آدم ، فما بالنا بغيره من المنشآت والمرافق التي تملأ الدنيا ، ماذا حدث لها من كثرة الذنوب ؟ لاشك أنها أكثر وأشد سوادًا ، ولكن أين البصيرة التي تدرك ذلك ؟

(١) ابن ماجه : سنن ابن ماجه . تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع . جــ٢ ص١٤٣٦ .
(٢) سنن الترمذي : جــ٢ ص١٠٥ .
(٣) سنن ابن ماجه : جــ٢ ص١٣٣٤ .
(٤) سنن الترمذي : جــ٢ ص١٨٢ .

النبي ﷺ وأسباب قيام الحضارات

إن الإسلام دين واقعي قابل للتطبيق في عالم الواقع بكل مثالياته فهي ليست مثاليات معلقة في الفضاء لمجرد التأمل أو التمني ولكنها مثاليات واقعية في متناول التطبيق إذا أخذها الناس بالجدية ، وأعطوها حقها من الجهد[١] فاتجاه الإسلام من التاريخ ، اتجاه يقوم على المذهب التحسُني ، فمتى تزايد إقبال الأفراد والشعوب على الطاعة لإرادة الله ، تحسنت الأمور وعاش الناس سعداء ، والإسلام هو الذي سيفوز بالظفر في النهاية [٢] .

فقد وردت عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث التي تعمل على حث الأفراد والشعوب على طاعة الله أو "المذهب التحسني" وهو أول سبب من الأسباب التي تعمل على قيام الحضارة ، حتى وإن كان أصحاب هذه الحضارة على غير الإسلام لأن طاعة الله جل وعلا ، لا تتوقف عند حد العبادات من صلاة وصيام وغير ذلك بل تشمل المعاملات أيضًا ، كالإخلاص في العمل والإتقان في الصنعة والأمانة وعدم الغش ، والجد والاجتهاد في سبل الحياة المتاحة أمام البشر ، فهذه الأمم وإن كانت لا تدين بالإسلام، ولكنها تطيع الله في معاملاتها ، وإن كانت هذه الطاعة غير مقصودة لذاته جل وعلا ، غير أنها طاعة كانت السبب في تقدمهم وقيام حضارتهم .

وقد أفرد ابن خلدون لطاعة الله عز وجل وفعل الخير كعامل من عوامل قيام الحضارات ، فصلاً خاصًا بذلك عنوانه : " فصل في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس " يقول فيه[٣]: " إذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير من النواحي والأمم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله ، والتدين بالشرائع والعبادات ، والقيام عليها وعلى أسبابها ، والتجافي عن الغدر والمكر والخديعة ونقض العهد ، وأمثال ذلك ، علمنا أن هذه خُلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا ساسة لمن تحت أيديهم " .

ومن الأسباب التي نستخلصها في قيام الحضارات من أحاديث النبي ﷺ الوحدة وعدم الفرقة خاصة الوحدة السياسية لأي أمة من الأمم ، فقد وضع

---

(١) محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي . دار الشروق ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٩٣م ، ص١٢٠ .

(٢) محمود الشرقاوي : التفسير الديني للتاريخ . ص٢١٨ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة . جـ٢ ص٤٩٩ ــ ٥٠١ .

الإسلام سواء في القرآن أو في الحديث نظرية عامة في السياسة أو في الخلافة أو في الإمامة[١] ، وحث النبي ﷺ على الوحدة وطاعة أولي الأمر في الكثير من الأحاديث : عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن بني إسرائيل كانت تسوسهم أنبيائهم . كلما ذهب نبي خلفه نبي . وأنه ليس كائن بعدي نبي فيكم " قالوا : فما يكون يا رسول الله ؟ قال : تكون خلفاء فيكثروا " قالوا : فكيف نصنع؟ قال : أوفوا بيعة الأول فالأول . أدوا الذي عليكم فسيسألهم الله عز وجل عن الذي عليهم[٢] . وعن النبي ﷺ قال : من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر ، ما من أحد يفارق الجماعة شبرًا فيموت ، إلا مات ميتة الجاهلية " [٣] .

فلم يأمر النبي ﷺ بقتال أولي الأمر إلا في أضيق الحدود وذلك حفاظًا على وحدة الأمة ، ولكي لا يصبح ذلك تصريحًا أو زريعة منه ﷺ لكي يتخذها أي إنسان ليقاتل الإمام ، حتى وإن كان ذلك لأتفه الأسباب . جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : الرجل يأتيني فيريد مالي . قال : ذكره بالله قال : فإن لم يذكر قال : فاستعن عليه من حولك من المسلمين قال : فإن لم يكن حولي أحد من المسلمين قال : فاستعن عليه بالسلطان قال : فإن نأى السلطان عني قال : قاتل دون مالك حتى تكون من شهداء الآخرة أو تمنع مالك [٤] .

لقد أفرد ابن خلدون للوحدة السياسية كعامل من عوامل قيام الحضارة ، عدة فصول في مقدمته ، وإن كان قد عبر عن الوحدة السياسية بلفظ " العصبية " فمن هذه الفصول " فصل في أن الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية " لأن العصبية بها تكون الحماية والموافقة والمطالبة وكل أمر يجتمع عليه، وأن الآدميين بالطبيعة الإنسانية يحتاجون في كل اجتماع إلى وازع وحاكم يزع بعضهم عن بعض[٥] . وقد أكد ابن خلدون أيضًا على خطورة المجازفة بالوحدة السياسية في موضع آخر من المقدمة ، وجعل لذلك فصلاً مستقلاً سماه " فصل في أن الأوطان الكثيرة القبائل

---

(١) علي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . دار المعارف، الطبعة الثامنة ١٩٨١م . جـ١ ص٥٥ .
(٢) سنن ابن ماجه : جـ٢ ص٩٥٩ .
(٣) سنن الدارمي : جـ٢ ص٢٤١ .
(٤) النسائي : سنن النسائي بشرح جلال الدين السيوطي . دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣م . جـ٧ ص١١٤ .
(٥) ابن خلدون : المقدمة . جـ٢ ص٤٨٨ ــ ٤٩٥ .

والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة" ذلك لأن السبب في هذا اختلاف الآراء والأهواء ، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت [(١)] .

ومع أن النبي ﷺ لم يأمر بقتال أولي الأمر إلا في أضيق الحدود الممكنة ، وكآخر حل لكل المشاكل ، إلا أنه ﷺ في الوقت ذاته أخذ على يد الحاكم وعلى يد كل ما تسول له نفسه بظلم الآخر موضحًا له بأنه أخوه في الإسلام أو في الإنسانية ، وهذه الأخوية لا تقتضي أن يظلم كل منا الآخر ، قال رسول الله ﷺ : المسلم أخو المسلم لا يخونه ، ولا يكذبه ، ولا يخذله ، كل المسلم على المسلم حرام : عرضه وماله ودمه ، التقوى هاهنا . بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم "[(٢)] وفي كتب السنن باب يسمى باب الفتن لو أُحسن فهمه على وجهه الصحيح لعرف المسلمون فيه مفتاحًا عظيمًا لفهم التاريخ الإسلامي وتفسيره [(٣)] .

ومن الأسباب التي اعتبرها النبي ﷺ سببًا من أسباب قيام الحضارة ، إعمار الأرض والأخذ بكل السبل التي يمكن أن تعمل على تقدم وازدهار الحياة . ذلك أن الدين لم يأت ليبني للناس جنة على الأرض يتخلص فيها الناس من قصورهم ، ومن أثر العوامل عليهم ، إن قيمة الإنسان في الدنيا لا تأتي من براءة الحياة من العلل في حياة خيالية كحياة حي بن يقظان في جزيرة ابن طفيل ، وإنما تأتي من المكابدة والمجاهدة في حياة مملوءة بظروف المقاومة[(٤)] ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ ﴾ الانشقاق : ٦ .

وقال رسول الله ﷺ : من كانت له أرض فليحرثها ، فإن كره أن يحرثها فليمنحها أخاه ، فإن كره أن يمنحها أخاه فليدعها " [(٥)] ، ذلك أن الله سبحانه خلق خلق الإنسان وركبّه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء ، وهداه إلى التماسه بفطرته ، وبما ركب فيه من القدرة على تحصيله[(٦)] . ويؤكد ابن خلدون على وجوب إعمار الأرض لتزدهر الحضارة في موضع آخر بقوله [(٧)] : " إن

(١) ابن خلدون : المقدمة . جـ٢ ص٥٢٨ .
(٢) سنن الترمذي : جـ٣ ص٢١٨ .
(٣) محمد خليل : المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ . ص١١٥ .
(٤) المرجع السابق : نفس الصفحة .
(٥) سنن الدارمي : جـ٢ ص٢٧٠ .
(٦) ابن خلدون : المقدمة. جـ١ ص٣٤٠ .
(٧) المصدر السابق : جـ٢ ص٨٣٣ .

الكسب إنما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد إلى التحصيل ، فلابد في الرزق من سعي وعمل " .

هذا ، وإذا كانت هذه هي الأسباب الرئيسية لقيام أي حضارة من الحضارات (طاعة الله ـــ أعمار الأرض ـــ الوحدة) ، فإن النبي ﷺ حدد الأهداف التي يجب أن تحققها أي حضارة من الحضارات لشعوبها المؤمنة بها وبمبادئها . قال رسول الله ﷺ : " من أصبح منكم آمنًا في سربه ، معافي في جسده ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا " [١] ، فإن الحضارة التي لا تحقق لشعوبها الأمن في المال والعرض والنفس ، وكذلك الأمن النفسي المتمثل في الرضا وراحة الضمير ، وكذلك توفير القوت الضروري على الأقل ، وكذلك المعافاة في البدن من الأمراض وكذلك مسببات الأمراض ، فإن الحضارة التي لا تستطيع أن تحقق هذه الغايات الثلاث ، لا يمكن أن تصبح حضارة ، وقد فقدت مصداقيتها ، مهما بلغت من مظاهر التقدم المادي الزائف . ولعل الحضارة الغربية المعاصرة الآن ، خير نموذج على مصداقية هذا الكلام ، فبرغم تقدمها المادي ، فإنها فشلت في تحقيق أهداف الحضارة لضياع نعمة الأمن منها على أقل تقدير .

---

(١) سنن الترمذي : جـ٤ ص٥ .

النبي ﷺ وأسباب سقوط الحضارات

إذا كان النبي ﷺ لم يفض في ذكر الأسباب التي تؤدي إلى قيام الحضارة ، فإنه ﷺ على الجانب الآخر ، أفاض في ذكر الأسباب التي تؤدي إلى سقوط الحضارة ، ذلك لأن القيام لا يمثل في حد ذاته عبرة في كثير من الأحوال ، لكن السقوط يمثل أكبر عبرة يجب أن يعتبر بها الناس ، لأن الوصول إلى القمة صعب لكن الحفاظ عليها أصعب .

تأتي في مقدمة الأسباب التي تعمل على سقوط الحضارات ـ والتي يمكن أن نستخلصها من الأحاديث النبوية ـ " قاعدة الحكم " ففي البداية أعطى النبي ﷺ للحكام قدرهم ومكانتهم ، فعن ضمرة بن حبيب أن النبي ﷺ قال : أعظم القوم أجرًا خادمهم " (١) وقال رسول الله ﷺ : " إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب ، فله أجران ، وإذا حكم فأخطأ فله أجر واحد " (٢) وذلك الأجر ، إذا كانت نية الحاكم تتجه بالفعل نحو صلاح الأمة والرقي برعيتها .

وإذا كان النبي ﷺ قد أعطى للحكام قدرهم وبيَّن لنا مكانتهم ، وأمر بطاعتهم وعدم الخروج عليهم ـ كما ذكر آنفًا ـ فإن النبي ﷺ قد حذر هؤلاء الحكام في أي عصر ومصر بعدم الغش والغدر بمصائر الأمة ، وعدم استخدام هذه الطاعة في جر الأمة إلى المهالك ، لأن في ذلك هلاك للراعي والرعية في نفس الوقت . عن معقل قال : " سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة " (٣) ، وعن أبى سعيد قال : "قال رسول الله ﷺ : لكل غادر لواء يوم القيامة يرفع له بقدر غدره ، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة " (٤) .

ومن الأمور التي تعمل على فساد الحكام وغدرهم بالأمة " البطانة " وخاصة بطانة السوء وهم علية القوم الملتفين حول الحاكم ، فقد حذر النبي ﷺ من هذه البطانة ، لأنها تعمل على فساد الحاكم وبالتالي تضيع الأمة وترمي بها رياح

---

(١) سنن سعيد بن منصور : تحقيق/ حبيب الرحمن الأعظمي . دار الكتب العلمية ـ بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٥م . جـ٢ ص١٥٧ .
(٢) سنن الترمذي : جـ٢ ص٣٩٣ .
(٣) مسلم : الجامع الصحيح . دار الآفاق الجديدة . بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع . جـ١ ص٨٨ .
(٤) المصدر السابق : جـ٥ ص١٤٣ .

التغيير إلى مكان سحيق ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من وال إلا وله بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر وبطانة لا تألوه خبالا فمن وقى شرها فقد وقى ، وهو من التي تغلب عليه منهما " [١] ، أي أن البطانة هي التي تغلب على الحاكم وليس العكس ، كما هو ظاهر ، ولهذا دائما ما يقال : ما أهلك فرعون إلا هامان .

ومن الأمور التي تعمل على هلاك وفساد الحكام ترك النصيحة الأمينة لهم . ولهذا كان النبي ﷺ يأمر بأن يتعهد المسلمون الحكام بالنصيحة دائمًا . عن تميم الداري قال : " قال رسول الله ﷺ : إنما الدين النصيحة قالوا : لمن يا رسول الله؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " [٢] وإذا كان النبي ﷺ قد أمر بنصيحة الحكام والنصيحة قائمة على الأخذ والرد ، فقد حذر ﷺ أيضًا من عدم الاختلاف الكثير معهم في ذلك ، لأن كثرة الخلاف ولو في الكلام تؤدي إلى هلاك الأمة . عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فخذوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا " [٣] .

ومن الأسباب التي تؤدي إلى سقوط الحضارات وضياع الأمم ظلم الحكام وصمت الرعية على هذا الظلم خاصة إذا بلغ مداه ، ففي هذه الحالة يجب على الأمة إقالته وخلعه ، ولهذا جعل الإسلام الثواب الكبير لمن يوصل إلى الحاكم صوت العدل وهو يعلم أنه ظالم ، قال رسول الله ﷺ " إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر " [٤] ، وحذر النبي ﷺ من مغبة السكوت على ذلك ، لأن العقاب سوف يحل من الله على الجميع . قال رسول الله ﷺ : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه " [٥] .

لقد أكد ابن خلدون على أن الظلم من عوامل سقوط الحضارة ، وخصص لهذا الأمر فصلاً كاملاً في مقدمته عنوانه " فصل في أن الظلم مؤذنًا بخراب العمران " وذكر فيه بأن الظلم مؤذنًا بانقطاع النوع ، لما أدى إليه من تخريب

---

(١) سنن النسائي : جـ٧ ص١٥٨ .
(٢) المصدر السابق : جـ٧ ص١٥٦ .
(٣) سنن ابن ماجه : جـ١ ص٣ .
(٤) سنن الترمذي : جـ٣ ص٣١٨ .
(٥) المصدر السابق : جـ٣ ص٣١٦ .

العمران ، وكانت حكمة الحظر فيه موجودة ، فكان تحريمه مهمًا ، وأدلته من القرآن والسنة كثير ، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر (١) .

ومن الأسباب التي ذكرها النبي ﷺ في فساد الحكم وضياع الأمم ، تولي المرأة لمقاليد الحكم في البلاد أو التدخلات النسائية في الحكم عمومًا ، فعن أبى بكرة قال : لما بلغ رسول الله ﷺ أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى(*) . قال : لن يفلح قوم ولوّا أمرهم امرأة " (٢) .

ومن أسباب هلاك الأمم أيضا والمتعلقة بالحكم ، انتشار " الوساطة " والمحسوبية في تطبيق القوانين فعن عائشة أن قريشًا أهمتهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله ﷺ فقالوا من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب فقال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" (٣) .

وإذا كانت هناك أسباب سياسة تؤدي إلى سقوط الأمم وحضاراتها فإن هناك أسبابًا أخرى ذكرها النبي ﷺ وتؤدي كذلك إلى سقوط الأمم أيضًا تتمثل في الأسباب الاقتصادية ، منها انتشار الربا في المعاملات بين الناس ، فعن ابن عباس قال : نهى رسول الله ﷺ أن تشتري الثمرة حتى تطعم ، وقال : إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله " (٤) .

إن النتيجة الحتمية للربا ـ كما قال أحد الخبراء الألمان في تقرير له ـ هي

---

(١) ابن خلدون : المقدمة . جـ٢ ص٦٩٩ ـ ٧٠٠ .

(*) إن شيرويه لما قتل أباه ، كان أبوه لما عرف أن ابنه قد عمل على قتله احتال على قتل ابنه بعد موته، فعمل في بعض خزائنه المختصة به حقًا مسمومًا وكتب عليه : حق الجماع من تناول منه كذا جامع كذا جامع كذا ، فقرأه شيرويه ، فتناول منه فكان فيه هلاكه ، فلم يعيش بعد أبيه سوى ستة أشهر ، فلما مات لم يخلف أخا ، لأنه كان قتل إخوته حرصا على الملك ولم يخلف ذكرا ، وكرهوا خروج الملك عن ذلك البيت فملكوا ابنته واسمها بوران . ابن حجر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري . تحقيق / محب الدين الخطيب . دار المعرفة ـ بيروت ـ لم تذكر سنة الطبع . جـ٨ ص١٢٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ٨ ص١٢٦ .

(٣) سنن الترمذي : جـ٢ ص٤٤٢ .

(٤) الحاكم : المستدرك على الصحيحين في الحديث . مكتبة النصر الحديثة ـ الرياض ـ السعودية ١٣٣٥هـ . جـ٢ ص٣٧ .

زيادة تضخم المال في أيدي فئة يتناقص عددها باستمرار وتزايد الفقر في فئة يتزايد عددها باستمرار ! وكفى بذلك إثما تذوق منه البشرية الوبال ! ولو بقى النموذج الإسلامي النظيف في تنمية المال بلا ربا ما أصبح الربا عمله عالمية الآن (١) .

كما أن المترفون أعداء أي تطور وتقدم ، يكفيهم ما كان عليه الآباء والأتباع ، والتقليد أقرب إليهم من الاجتهاد وتحمل المسئولية الجديدة من الآراء والمواقف ، فالمترف يتولى مسئولية الحكم فكثيرًا ما يعتمد على غيره ، ولا يحسن الاختيار لمعاونيه ، فهو يختارهم على شاكلته ، وتنحدر المسئوليات من يد إلى يد ، وتضيع مصالح الناس بين الاستغلال واللامبالاة والإهدار (٢) .

وقد أفرد ابن خلدون للعوامل الاقتصادية المتسببة في سقوط الحضارات والأمم وفي مقدمتها الترف والبذخ ، فصلاً كاملاً في مقدمته حمل عنوان " إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة ، أقبلت الدولة على الهرم " (٣) ،وذكر في موضع آخر بأن من مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف ، فيقع التفنن في شهوات البطن من المأكل والملاذ ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضي ذلك إلى فساد النوع (٤) ، فعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء ، فقد تبين أن الترف من عوائق المُلك (٥) .

ومن الأسباب الاقتصادية التي تؤدي إلى هلاك الأمم ، عملية التطفيف في الكيل والميزان . قال رسول الله ﷺ لأصحاب الكيل والميزان : " إنكم قد وليتم أمرين ، هلكت فيه الأمم السالفة قبلكم" (٦) .

وكانت هناك أسباب اجتماعية تحدث عنها النبي ﷺ كانت سببًا في فساد المجتمعات وانهيارها ، من ذلك قول رسول الله ﷺ : إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه ، فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض " (٧) ،

---

(١) محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي . ص٢٢٦ .
(٢) عبد العزيز كامل : القرآن والتاريخ . ص١١٠ .
(٣) ابن خلدون : المقدمة . جـ٢ ص٥٣٣ .
(٤) المصدر السابق : جـ٢ ص٨٢٠ .
(٥) المصدر السابق : جـ٢ ص٤٩٧ .
(٦) سنن الترمذي : جـ٢ ص٣٤٥ .
(٧) المصدر السابق : جـ٢ ص٤٧٤ .

وليست الفتنة والفساد في الأرض سوف تنتج من هذا الخاطب ، لأن النبي ﷺ شرطه بالتدين والخلق ، ولكن الفساد والفتنة سوف تظهر لو أصبح رفض مثل هذا المتدين ظاهرة في المجتمع ، عندئذ سوف تظهر الفتنة بكثرة العوانس في المجتمعات ، وسوف يترتب على هذه الفتنة فساد وذلك بكثرة الزنا لسد الرغبات الغريزية الفطرية سواء في الرجال أو النساء العوانس وفي ذلك ضياع للأمم.

وكان النبي ﷺ يتحدث عن هذه الأسباب جملة ـ سياسية واجتماعية ـ واقتصادية ، في حديث واحد شامل لكل هذه الأسباب وجزئياتها ثم عواقب ذلك . عن عبد الله بن عمر ، قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ . فقال : " يا معشر المهاجرين ! خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط ، حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المنونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله ، إلا جعل الله بأسهم بينهم " (١) ، وهذا الحديث جامع مانع لو أدركنا معانية ـ خاصة نحن المسلمون ـ لاستطعنا أن نتوصل إلى حل كل المشاكل المختلفة التي نعاني منها الآن .

يقول ابن خلدون(٢) : " إذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات ، وانتحال الرذائل ، وسلوك طرقها ، فتفتقد الفضائل السياسية منهم جملة ، ولا تزال في انتقاض إلى أن يخرج الملك من أيديهم " .

هذا ، وهناك بعض الأحاديث التي تحدث فيها النبي ﷺ عن سبب هلاك الأمة الإسلامية على وجه الخصوص ، وذلك في الأحاديث الغيبية المتعددة التي ذكر فيها النبي ﷺ ذلك ، فقد شكى بعض الناس لأنس بن مالك ما يلاقون من الحجاج ابن يوسف الثقفي فقال : ما من عام إلا والذي بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم " سمعت هذا من نبيكم ﷺ " (٣) .

فقد حدث دون شك هبوطاً عند الذروة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ

---

(١) سنن ابن ماجه : جـ٢ ص١٣٣٣ .
(٢) المقدمة : جـ٢ ص٥٠١ .
(٣) سنن الترمذي : جـ٢ ص٣٣٣ .

والخلفاء الراشدين من بعده ، لكن هذا الجيل الذي ارتفع إلى تلك الذروة قد ارتفع إليها تطوعًا لا تكليفًا ، وأن الله لم يفرض على البشر أن يرتفعوا إلى تلك القمم الشاهقة فرضًا ، وإن كان قد حب إليهم ذلك بكل تأكيد ، وإنما ارتفع ذلك الجبل الفريد إلى تلك الذروة بأن أخذ المندوبات والمستحبات كأنها فروض ، وألزم بها نفسه طوعًا لا تكليفًا [١] .

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : يا رسول الله أنُهلك وفينا الصالحون ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم إذا كثر الخبث "[٢] كما حدد النبي ﷺ الفتنة الكبرى التي سوف تقع فيها الأمة فقال ﷺ : " إن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي المال "[٣] وقال ﷺ في موضع آخر : " والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم" [٤] .

وصلى رسول الله ﷺ صلاة فأطالها فقالوا : يا رسول الله صليت صلاة لم تكن تصليها قال : أجل إنها صلاة رغبة ورهبة ، إني سألت الله فيها ثلاثًا فأعطاني اثنتين ومنعني واحدة : سألته أن لا يهلك أمتي بسنة فأعطانيها ، وسألته أن لا يسلط عليهم عدوًا من غيرهم فأعطانيها ، وسألته أن لا يذيق بعضهم بأس بعض فمنعنيها " [٥] ، وصدق رسول الله ﷺ فلم يتغلب على المسلم غير المسلم بالحرب المعلنة صراحة وإنما بالخيانة والتحالف مع العدو ضد أخيه المسلم ، وفي النهاية خسر الهازم والمهزوم .

---

(١) محمد قطب : كيف نكتب التاريخ الإسلامي ، ص١٣٤ .
(٢) الإمام مالك : الموطأ . تحقيق / هاني الحاج .المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع . جـ٢ ص٣٣١ .
(٣) سنن الترمذي : جـ٣ ص٣٨٩ .
(٤) المصدر السابق : جـ٤ ص٥٦ .
(٥) المصدر السابق : جـ٣ ص٣١٩ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

أولاً : **المصادر** :

- **أنس** : **الإمام مالك بن أنس** :

١ ــ الموطأ . تحقيق / هاني الحاج . المكتبة التوفيقية ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع.

- **الترمذي** : **محمد بن عيسى الترمذي** . **ت ٢٠٩هـ**

٢ ــ سنن الترمذي . تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف . دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣م .

- **الحاكم** : **أبو عبد الله محمد النيسابوري المعروف بالحاكم** .

٣ ــ المستدرك على الصحيحين في الحديث. مكتبة النصر الحديثة ــ الرياض ــ السعودية ١٣٣٥هـ

- **ابن خلدون** : **عبد الرحمن بن محمد بن خلدون** . **ت ٨٠٨هـ** .

٤ ــ المقدمة . تحقيق/ علي عبد الواحد وافي . الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦م.

- **الدارمي** : **عبد الله بن الفضيل الدارمي** . **ت٢٥٥هـ** .

٥ ــ سنن الدارمي . دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع .

- **العسقلاني** : **أحمد بن علي بن حجر العسقلاني** . **ت ٨٥٢هـ** .

٦ ــ فتح الباري بشرح صحيح البخاري . تحقيق / محب الدين الخطيب .دار المعرفة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع .

- **ابن ماجه** : **محمد بن يزيد بن ماجه** . **ت ٢٧٥هـ** .

٧ ــ سنن ابن ماجه . تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع .

- **مسلم** : **مسلم بن الحجاج بن مسلم** .

٨ ــ الجامع الصحيح . دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ لم تذكر سنة الطبع .

- **ابن منصور** : **سعيد بن منصور** .**ت ٢٢٧هـ** .

٩ ــ سنن سعيد بن منصور . تحقيق / حبيب الرحمن الأعظمي . دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٥م .

- **النسائي** : **أحمد بن شعيب بن بحر النسائي** . **ت ٣٠٣هـ**

١٠ ــ سنن النسائي . دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

ثانياً : **المراجع** :

- **خليل** : **محمد رشاد خليل** .
١ــ المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره . دار المنار .القاهرة . لم تــذكر سنة الطبع .
- **الزير** : **محمد بن حسن الزير**.
٢ ــ القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية .دار المدني ــ جدة ــ السعودية ــ الطبعة الثالثة ١٤٠٥هــ .
- **الشرقاوي** : **محمود الشرقاوي** .
٣ ــ التفسير الديني للتاريخ . دار الشعب ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع .
العقاد : عباس العقاد .
٤ ــ الإنسان في القرآن الكريم . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٦م .
- **الغزالي** : **محمد الغزالي** .
٦ ــ فقه السيرة . دار الكتب الإسلامية ــ القاهرة ، الطبعة الثامنة ١٩٨٢م .
- **قطب** : **محمد قطب** .
٧ ــ حول التفسير الإسلامي للتاريخ . مؤسسة بدران ــ القاهرة ــ لم تذكر سنة الطبع .
٨ ــ كيف نكتب التاريخ الإسلامي . دار الشروق ــ بيروت ــ الطبعــة الثانيــة ١٩٩٣م.
- **كامل** : **عبد العزيز كامل** .
٩ ــ القرآن والتاريخ . دار البحوث العلمية ــ الكويت ــ الطبعة الأولى ١٩٨٤م.
- **النشار** : **علي سامي النشار** .
١٠ ــ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . دار المعارف ــ الطبعة الثامنة ١٩٨١م.

تم بحمد الله وتوفيقه ،،،،